Journal of Humanities and Social Sciences
Volume (5), Issue (2) : 28 Feb 2021
P: 73 - 90

ISSN: 2522-3380

مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد (5)، العدد (2) : 28 فبراير 2021م
ص:73 - 90

The Literary Value and Characteristics of Omani Journeys

Nasreddin Ibrahim hassan

Haitham Ahmed Alsalmi

International Islamic University Malaysia || IIUMM

Abstract: This study aims to bring the preciousness and value of the Omani journeys into the spotlight through the exhibition and analysis of a selected collection of poetic writings which are inseparable characteristic of this genre of literature. However, prose was the most common type of literature used by travelers to document their adventures while poetry was predominantly employed by poets .

The study also discussed the general traits and artistic features of these poetic pieces and it concluded that:

• Travel literature is a form of literature which has unique characteristics and features compared to other genres of literature .

•Travelers chose to use simple and clear rather than complicated and weird language to describe their travel experiences and encounters .

• The religious influence is clearly visible in the travelers' artistic style. The Quran and the Sunnah constituted the basis of their culture and the pool of their eloquent and expressive language.

Keywords: travel literature- Omani travels- Arabic literature.

قيمة الرحلات العمانية وخصائصها

نصر الدين إبراهيم أحمد حسن

هيثم بن أحمد بن سليمان السالمي

كلية معارف الوحي || الجامعة الإسلامية العالمية || كوالالمبور || ماليزيا

المخلص: هدفت هذه الدراسة إلى إبراز قيمة الرحلات العمانية وأدبيتها، من خلال عرض وتحليل مجموعة منتقاة من النصوص الشعرية، والتي تمثل صفة مميزة، وخصيصة هامة لهذا النوع من الفنون، إذ جرت العادة أن تكون النصوص نثرية، بينما هي شعرية عند أدباء عمان، وتوضح الدراسة كذلك شكل السمات العامة والخصائص الفنية التي تميزت بها هذه النصوص الشعرية.

وخلصت هذه الدراسة عموما إلى أن أدب الرحلات شأنه شأن غيره من فنون الأدب، شكل أدبي يمتاز عن غيره من الأشكال والفنون الأدبية الأخرى من حيث تمتّعه بمجموعة من الصفات والخصائص، كما جاءت ألفاظ معظم أشعار الرّحالة سهلة وواضحة، بعيدا عن التعقيد والغرابة، وأخيراً؛ يبدو الأثر الديني واضحا في اسلوب الرّحالة، فقد كان القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة أساس ثقافتهم، ومصدر بلاغتهم.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلات – الرحلات العمانية – الأدب العربي.

مقدمة.

الرحلة سلوك ملازم للإنسان منذ أن وجد، على الرغم من تباين الدوافع وتعدد الحاجات التي يمكن إرجاعها إلى الرغبة في اكتشاف المجهول والتعامل معه، بما تيسر من وسائل نقل تطورت على مدى السنين والاعوام،

مع التطلع المستمر إلى امتلاك القدرة على التواصل والانتفاع، وهذا ما يثير تأججا داخليا يودي إلى الرغبة في الحركة والانتقال، قصد إشباع حاجات النفس والعقل من جهة، والروح والبدن من جهة أخرى.

ولقد لفتت انتباهي عند دراسة الأدب العماني، أن جلّ الرحلات التي قام بها الرحالة، كانت لأهداف تعبدية أو علمية أو سياسية، ولذلك وقفنا على نصوص توثيقية في مجالات المعرفة، ونصوصا كثيرة توثق المشاهدات والمواقف التي مر عليها هؤلاء الرحالة، ذلك من تنقلاتهم بين البلدان والاقاليم.

وعند التماس مصادر الرحلة العمانية في مظانها، كانت النتيجة أن جمعت فكرة عامة عن هذه الرحلات وطبيعتها، شجعني ذلك كثيرا إلى المضي في هذه الدراسة، والانضمام إلى قائمة الذين يسعون إلى إدراج هذا التراكم الإبداعي ضمن المشروع الحضاري الهادف إلى إحلال الأدب العربي مكانته اللائقة به، وسواء تعلق الأمر بالبحث عن هذه الرحلات المبعثرة في كتب الأدب العمانية، أو البحث عن تناغم عناصرها وانسجامها، ومدى حضورها في الإبداع الأدبي المعاصر، ولذلك استخدمنا من المناهج ما يتناسب مع النصوص المختارة في الدراسة.

ويمثل " أدب الرحلات " نوعا أدبيا له بواعثه، وخصائصه، وأهدافه، وله أدواته الفنية، ورؤاه المضمونية، وكل ذلك يتشكل مع كل رحلة أدبية، وفق غاياتها، وقدرة صاحبها ومهارته في الملاحظة والرصد، " وكل هذه الرحلات بدأت ضيقة، ثم اتسعت مع مرّ الزمن، فالإنسان ولد راحلا، وإن أعجزته الرحلة، تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال، ونجد ذلك مبثوثا في الأساطير الأولى، كما نجده ماثلا في الحروب والفتوح القديمة، وما سطره الملوك الأول في مصر، والعراق والشام" (ضيف، د ت، 7).

وبعد فتوحات العرب الكثيرة من الهند إلى الصين وإلى المحيط الأطلسي، وجبال القوقاز والسودان، وأصبح كل ذلك عالما واحدا مشتركا في الدين والثقافة، وصف مؤرخوهم مدن هذا العالم وبلدانه، كما وصفوا سكانه، وكان ذلك إرهاصا لما قام به علماؤهم وأدباؤهم من رحلات في المستقبل.

ومن أهم أسباب تدوين الرحلات حاجة الدول إلى معرفة الطرق التي تصل إلى أقاليمها، لذلك ألّفت كتب كثيرة في وصف المسالك والممالك، وهذه الحاجة السياسية اقترنت بها حاجة دينية، وحاجة اجتماعية، وأخرى ثقافية: إذ كان الحج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة فريضة على كل مسلم، وكان المسلمون يتجشمون راضين كل مشقة في سبيل الوصول إليها، وتأدية مناسك الحج والعمرة، وزيادة قبر الرسول ﷺ في المدينة المنورة، وبجانب ذلك، كان التجار يضربون الأرض شرقا وغربا، للبحث عن أرض جديدة للتجارة، أو نشر الدين الإسلامي، وقد وصلوا في مغامراتهم إلى أقصى الصين، وعبروا القارة الهندية، وتوغلوا إلى إفريقية.

وغني عن القول إن الرّحلة الأدبية وجدت في تراثنا الأدبي العربي بشكل ملحوظ، ويظهر ذلك جليا من خلال الكتب الكثيرة، حيث تناولت الرحلات البحرية وهي تروي عن التجار والملاحين وهواة البحر، تضمنت فيه تجربتهم المليئة بالمغامرات والمعلومات فيما يتعلق بالبحار وما يحويه من حياة، وأقوام كانوا يسكنون على شواطئها، يصاغ ذلك في أسلوب قصصي بديع يؤكد الواقع أحيانا، وينشئ لنا عوالم خيالية أخرى.

وفي الجانب الآخر تشكل الرحلات البرية في الأمم والبلدان، وهي كثيرة بكتب الرّحالة بمخيلة القاص، الذي يسند الواقع بالخيال والحقيقة بالأسطورة.

إنّ أدب الرحلات شأنه شأن غيره من فنون الأدب، شكل أدبي يمتاز عن غيره من الأشكال والفنون الأدبية الأخرى، من حيث تمتّعه بمجموعة من الصفات والخصائص.

ومن المهم بدءا أن نلتمس رؤية هذه الدراسة، من خلال تعريف أدب الرحلات، فهي" تلك النصوص التي يصور فيها الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها لأحدى البلدان"، ونلاحظ أن

التعريف السابق يحدد الرحلة بأدبية أسلوبها، يخرجها ويميزها عن الرحلات الأخرى، ذات الأهداف العلمية البحتة" (الموسوعة العربية، 1416هـ، 65).

ولكل رحّالة قصته من الرحلة، وملحمته التي سطر فيها حكايته، فالرحلة في قيمتها وأهميتها لا تقل أهمية عن غيرها من فنون الأدب المختلفة: لذا سيجد الباحث في أدب الرحلة العربية، متعة وخصائص ومميزات أدبية عن غيرها عند كل أديب من الأقطار العربية، ومن هذه الأقطار (سلطنة عمان)، فهي بلد كانت الرحلة ولا زالت منطلقا للبقاء، وتكوينا لحضارتها العريقة، وما الرحلة عند العمانيين وانتقالهم عن وطنهم وبعدهم عنه إلا امتداد للعرب الرّحل.

مشكلة البحث:

تتبلور مشكلة البحث في:

- ماذا أضاف الرحالة العمانيون لأدب الرحلات العربية؟

أسئلة البحث:

1- هل هناك قيمة فنية لأدب الرحلات العمانية؟

2- ما هي أبرز ملامح خصائص الرحلات العمانية؟.

أهداف البحث:

- الكشف عن مساهمة الرحلات العمانية في الساحة الأدبية، من خلال الصورة الفنية التي قدمها الرحالة في قوالب شعرية، نقلت التجربة إلى المتلقي، عبر صور بلاغية.
- الوقوف على العديد من الصور الفنية، ومما أورده الرحالة في رحلاتهم.

أهمية البحث:

يعدّ أدب الرحلات رافدا مهما من روافد الأدب العربي، وتتلخص أهمية البحث في:

1. الإسهام في دراسة المدونة العربية عامة، وأدب الرحلات العمانية خاصة.
2. إلقاء الضوء على بعض الأدباء والرحالة العمانيين.

منهجية البحث.

- **المنهج الوصفي:** من خلال توضيح قيمة الرحلة العمانية، ووصف خصائصها.
- **المنهج التحليلي:** من خلال تحليل الصور الفنية في الأبيات الشعرية الواردة.

ويمكننا القول بأن هذه الدراسة جاءت لتكشف أغوار الرحلات العمانية التي تناثرت أشلاؤها بين المخطوطات وما دونه الرّحالة العمانيون في القصائد التي لم تجد طريقها للتحقيق أو الدراسة، وما يميز الرحلات العمانية عن غيرها من رحلات أخرى مدونة من حيث القيمة والخصائص الفنية.

وقد أسهم أدب الرحلات قديما في معرفة البلاد، وعاداتها وسلوكها، وقدّم للقارئ العربي إذ ذاك ما يحتاجه من أخبار تلك البلاد وأحوالها، فإننا اليوم وفي ظل هذه النهضة الاتصالية المدهشة بأمس الحاجة إليه، ذلك أن العالم العربي أصبح مستقبلا لكثير من الحضارات، ذات القيم والعادات المختلفة، والتي شيدت الهوية من خلال هذه القنوات الاتصالية المتعددة، " مما يعني أننا بحاجة إلى رحلات واعية تقدم لنا رؤية واضحة عن هذه الحضارات

بعيدا عن الانخداع أو التزوير، ويسهم في كشف الجوانب النافعة في هذه المجتمعات للإفادة منها، وبيان خطورة الظواهر التي تضر بقيم المجتمع الإسلامي وتهدد أخلاقياته" (آل حمادي، 1997م، 9).

الدراسات السابقة.

لا تخلو الساحة من دراسات سابقة لها علاقة بموضوع الدراسة، ومنها:

- أدب الرحلات العمانية (رحلة السلطان خليفة بن حارب إلى أوربا أنموذجا)، لمريم بنت حميد الغافرية، وهي دراسة فتحت الباب أمام كل من له اهتمام بأدب الرحلات العمانية، حيث استقصت تاريخ الرحلات العمانية في حقب تاريخية مختلفة، ابتداء من الدولة النبهانية، مرورا بالدولة اليعربية، وانتهاء بالدولة البوسعيدية، وكان موضوع دراستها يسلط الاهتمام على تجربة الإنسان العماني مع الرحلة، ومشواره الطويل في ترسيخ دعائم أدب يستحق الوقف عليه، والفائدة من هذه الدراسة عظيمة خاصة فيما يتعلق بتاريخ الرّحلة في عمان، وأسباب ازدهارها في فترات معينة، والوقوف على دوافع تدوينها وبواعثه، وأنواعها عند أدباء عمان ورحالها.

وسيضيف الباحث إلى الدراسة السابقة عدة أمور، أهمها: توضيح الصور الفنية من خلال تحليل النصوص الشعرية، وذكر الخصائص التي تميزت بها الرحلة عند رحالة عمان.

ومن جانب آخر فالدراسة السابقة كانت لنص نثري، الذي يتميز بسمات جماليّة كالسجع، والطباق، وهي كتابة لا تلتزم بشكل معيّن أو قالب رسميّ محدد، إلا أنّها تتبع القواعد النحويّة، أما النصوص التي نحن بصدد دراستها؛ فهي نصوص شعرية شكلت نسقا جماليا بديعا للنص الرحلي.

- فنّ الرحلة في الأدب العربي، لإسماعيل زردومي، وقد تناولت الدراسة بنية الرحلات في الأدب العربي القديم، ومواضيعها، وخصوصية كل نوع من الرحلات، وقد وضحت الدراسة كذلك نضوج أدب الرحلة وازدهاره في أواخر القرن السادس، بعدما كان السبق للشرق العربي في الجغرافية الوصفية (المسالك والممالك).

وأفادت الدراسة، فهم توجهات شخصية الرحّالة من خلال كتاباتهم وتدوينهم لرحلاتهم، من حيث أنها تمثل وعي عصرها، والشاهد على ما فيه من أحداث، حيث أن بعض هذه الرحلات اكتملت فيها العناصر التأليفية والإبداعية، وبرزت علاقتها بالسيرة الذاتية والتراجم، ومختلف أشكال التعبير اللغوي.

المبحث الأول: قيمة الرحلة العمانية.

تعدّ كتب أدب الرحلات من الفنون القديمة، التي عبر من خلالها الأديب العماني، عما شاهده وهو يجوب الافاق مكتشفاً أو متعلماً، واستطاع التعبير عن ذلك من خلال قوالب شعرية تارة وبالنثر تارة أخرى، ورغم أن كثيراً مما دونه الادباء في عمان من رحلاتهم لم تصل الينا، وربما ضاع كثير منها أو هاجر مع هجرة المخطوطات العمانية إلى الأقطار الأوروبية وبعض بلدان العالم، إلا أنه ومع تلك الظروف والأسباب؛ فإننا نجد ما اطلعنا عليه من هذه الرحلات يعطي صورة واضحه على قدم هذه الرحلات وتنوع طرقها واختلاف أهدافها وغنى مضامينها.

ويزداد أدب الرحلات خصوبة في عمان، حيث عرف عنهم رغبتهم في الأخذ عن العلماء، وزيارة الأماكن المقدسة، وجولاتهم المختلفة من أجل الاطلاع والبحث، أو الدعوة إلى دين الله.

ومع صعوبة الإلمام بكل من رحلوا على مدى الصعود والأزمنة، وإن كانت كتب التراجم والسير والتاريخ، وكثير من كتب الادب تشير في مجال الترجمة للأدباء والرحالة، أو التعريف بإنتاجهم إلى الكثير من هؤلاء الرحالة ورحلاتهم، وقد أوردت صاحبة كتاب (أدب الرحلات العمانية)، العديد من أسماء الرحالة العمانيين الذين رحلوا من أجل طلب

العلم، وزيارة بعض الشخصيات الاعتبارية في عمان؛ كالحكام والسلاطين، وبعض أشهر الفقهاء ورؤساء القبائل (الغافرية، 2013م، 18-38).

وبالنظر إلى النصوص الرحلات العمانية تتجلى بعض القيم، ومنها:

- **القيمة السياسية**: وتظهر جلياً من خلال ذكر زيارات الملوك والسلاطين الذين كانت لديهم آراء سياسية تخالف نظام الحكم في الدولة، أو استقرار بعضهم في بلدان غير بلدانهم، فيصادف ذلك سفر الرحالة إلى نفس تلك البلدان، فيلتقون معهم زيارة وتأصيلا وتوثيقا للعلاقات، ومن ذلك أبيات الرحالة سعيد بن خلف الخروصي، عندما سافر إلى باكستان، لحضور ندوة عن مؤسس جمهورية باكستان الإسلامية، يقول (الخروصي، 1981م، 163):

وموضوعها الذكرى لإحياء ذكر من	بنى دولة غراء شيمتها السلم
هي السلم حقا للصديق ومن بغى	تكيل له بالمد صاعا هي السهم
هو القائد المغوار والفاتح الذي	دعا دعوة ما شانها الحوب والإثم
محمد يدعى "جناحا" لأنه	غدا جانحا للرشد وهو له عزم.

إن السياسة بمشكلاتها قد أثرت على رؤية الرحالة للآخر، وفرض عليه توجيه نقده له والحديث عن إنجازاته، ومن خلال الأبيات السابقة، يشرع الرحالة في وصف العمل الجبار الذي قام به مؤسس باكستان الحديثة عام 1947م، والمدينة التي اقيم بها المؤتمر هي كراتشي، حيث ولد القائد محمد جناح وتوفي فيها أيضا، وقد استطاع هذا القائد بأعمال الجليلة وإنجازاته، أن يحفر له مكانا في قلوب خصوصا عند الشعب الباكستاني، والأجيال المتلاحقة، وكذلك لدى شعوب العالم الإسلامي بأسره (جناح، 2018م، 22).

ويظهر للباحث أن الوضع السياسي المتردي للأمة، قد منح الخطاب الرحلي النقدي أبعاداً متميزة من الحضور والموضوعية والمصارحة، إذ أن الرحالة يستشعر الصراحة والوضوح في طرح المشكلات وعلاجها هو سبيل حلها المباشر، وليس من الغريب أن تكون قضية "فلسطين"؛ هي القضية التي ما برحت تخطر على بال الرحالة، وتستنزف مداده ليكتب عنها ويحللها، وفي ذلك يقول الرحالة مرشد الخصيبي: (الخصيبي، 2003م، 24)

ومسجدنا الأقصى عليه قد اعتدى	ودنسه علج هناك أجيـر
صفا لك جو كان بالأمس معتما	وعاونك الشيطان وهو غرور
أثار بما يأتي حفيظة مسلـم	وقد ظنَّ ما في المسلمين غيور
خسئت وخارت فيك يا ذا قوائم	وشُلَّت يد مسته وهو طـهور
ستعلم بعد اليوم يا ذا بأننـا	نغار إذا ما القدس مسَّ كـفور.

- **القيمة الدينية**: وهي أثر واضح للإسلام الذي يجده الباحث في ميدان أدب الرحلة العمانية، بل أننا نجد الصبغة الإسلامية مطبوعة على نتاجهم الرحلي ولا غرو أن هذه الروح ليست خاصة بأدب الرحلة العمانية فحسب، بل إنها تتضح كذلك في فنون أدبية أخرى، غير أنها تتضح هنا لأن دواعيها مطلوبة وواضحة، فالرحالة يخرج من بلده ليصادف رؤى ومشاهد وأحداث متنوعة تتطلب منه كثير من الأحيان تحديد رؤيته وقف ما يتطابق ورؤيته المنبثقة من الفكر الإسلامي.

وهنا نؤيد حقيقة أن الرحالة ينطلق من الجزيرة العربية، التي انطلق منها شعاع الإسلام، وهي بذلك حاضره له، عليه كان الحس الديني طبيعياً لا تكلف فيه، ولا مراءاة يظهر في المواقف الداعية إليه، وكانت الثقافة الإسلامية وحسن الاطلاع، هو الداعم الرئيسي لذلك الحس، مع تباين طرق الأداء ومناهج المعالجة، فالهدف واحد والغاية واضحة؛ وهي الوقف على أحكام الدين وآدابه ونشر تعاليمه.

ويتجه بعض الرحالة في سبيل ذلك، إلى القران الكريم والآيات العطرة، الدالة على التمسك بأخلاق الدين الحنيف، وفي ذلك يقول الرحالة سعيد بن خلف الخروصي- رحلة إلى بمبي- (الخروصي، 1981م، 198).:

والأن في بمباي أرجو العافية — من خالقي ورحمة موافيـة
إن شاء ذو العرش نزور ميرجا — بعد العلاج أو قضى أن نخرجا
إليكم فالأمر للرحمـــن — لا شيء منه قـط للإنسـان.

وفي الأبيات السابقة يتحدث الرحالة الخروصي، عن التوكل على الله رب العالمين؛ فهو المصرف لأحوال العباد، وهو يشير إلى الأثر الذي يروى: (أن الله تعالى أوحى إلى داؤود عليه السلام: يا داؤود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد، فإن سلمت لما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما اريد" (الغزالي، 2005م، 346).

ومن المعلوم أنه لا يقع شيء في الكون كله إلا بإرادة ومشيئة الله تعالى، بما في ذلك أفعال العباد، قال تعالى: "وما تشاءون إلا أن يشاء الله" (سورة الانسان:3).

ومن الرحلات العمانية ذات الطابع الديني، رحلة موسى بن محمد الكندي، الذي عاش في القرن الخامس عشر الميلادي، الذي دون قصيدة تتألف من أربعة وثلاثين بيتا، يصف استعداده للرحلة وتجهيز حقبته، والوسيلة التي سيرحل عليها (مطيته)، وتركه لأهله ومنزله، وتجشمه السفر للقاء البيت العتيق، يقول: (البطاشي، 2004م، 174/2)

هجرت منازلي وتركت آلي — وهيّجت الهجان إلى الزيال
وقربت القلوص وقلت إيهٍ — هلموا بالحقيبة لارتحالي
وودعت الأحبة فاستهلت — مدامعها بدمع كاللآلي.

وللرحالة عبد الله بن محمد بن أحمد المعيني، قصيدة في رحلة الحج عام (1344هـ)، يقول في مطلعها: (البوسعيدي، 2003م، 272)

إلى أين هذا الركب أمت ركايبه — وجادت بأصوات الحداة نجايبه
وما هذه الأعلام تنشر فرحة — بأيدي رجال تقتفيها كتايبه
إلى مهبط الوحي الذي تمّ ضوءه — وعمّ جميع العالمين رغائبه.

من خلال الأمثلة السابقة، يتضح جليا تطلع النفس الإنسانية للانتقال من موضع لآخر، ومن مكان إلى سواه، لتتعرف على ما لا تعلم، وتكتشف ما لم تر في هذا الوجود، لتأخذ الدروس والعبر، ومع ذلك كله يبقى السفر إلى الله مختلف تماما، فالسفر لنيل رضوان الله يبعث في النفس طمأنينة وراحة، لذلك كان أجمل السفر: هو السفر لأداء الحج والعمرة، وعليه نجد كثيرا من النصوص التي دونها الرحالة العمانيون لتلبية نداء الخليل إبراهيم –عليه السلام- مستأنسين بالله في أسفارهم، مصطحبين الرفقة الحسنة زادا ومؤنة، لذلك زخرت رحلات الحجاز عندهم وكان لها النصيب الأوفر من التدوين.

- **القيمة الاجتماعية**: يعد المظهر الاجتماعي القائم بين أفراد المجتمع الواحد، من أبرز المشاهد التي وقفت عندها الرحلة العمانية، حيث رصدت الصورة المتعددة لأشكال العلاقات الاجتماعية، المتمثلة في العادات والتقاليد والأعراف، التي توضح صورة واضحة عن طبيعة وأسس البناء الفكري، وسلوكيات المجتمع، ومدى التقدم الحضاري لتلك الدول، ومن جهة أخرى، ركزت هذه الرحلات على العلاقة الوطيدة بين المكان والانسان، وتناولتها في كثير من المواضع بالتعويض التفصيلي، وقد اولت أيضاً البعد الاجتماعي قدراً كبيراً من العناية والاهتمام، أثناء حديثها عن ذاتها، ومن خلال حديثها عن ثقافة الاخر وأسلوب حياته، فرسمت الوجهة الحقيقي للحياة

الاجتماعية، "وتأثير الدين الإسلامي، الذي كان حافزاً عاماً اشترك فيه أكثر الرحالة، وألقت الضوء على كل ما لفت انتباه الرحالة من أحوال الكسب والعيش والتعامل، وما وصلت إليه الحياة من تطور وتقدم في شتى مكونتها، وكل ما يرتبط بها من مظاهر اجتماعية أو دينية، وما يتعلق بها من عادات وتقاليد وأعراف، يمزها عن بلد الرحالة" (الهروط، 2008م، 88).

ومن العادات الاجتماعية التي رصدها الرحالة مرشد الخصيبي في رحلة- الجبل الأخضر- كرم الضيافة، وحسن الرفادة واللقاء الطيب، (الخصيبي، 2003م، 160).

وقد توجهنا إلى المناخــر	والجو فيها كان جواً شاعري
حيث تجولنا لبعـض وقت	وكاد الوقت فيها يمضي
بين الجنان الخضر قد جلنا بها	والجوز والرمان قد زاد إليها
ثم التقينا حمد النبهانــي	نجل محمد جليل الشــأن
وقد أصرّ الشيخ أن يكرمنـا	ورده عن ذلك ما بوسعنـا
موائد الفواكه المختلفــة	أتت لإكرام لنا مؤتلفـــه
وفوق ذا بشاشة وخلــق	يا حظ من بمثل ذاك يُـرزقُ.

لقد كان للرحالة العماني، عين لامحة ذات حس دقيق بواقع الأشياء، استطاعت كشف الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والتعمق في مضامينها ليتسنى له إبداء آرائه، مدعومة بالدلائل من واقع المعيشة، لذلك رصدوا في رحلاتهم صوراً متحددة من الحياة الاجتماعية للبلدان التي زاروها، والتي تمثل بعض مناسبات القوم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم، التي كانت تماثل في أغلبها وخاصة في الرحلات الداخلية، العادات التي عايشها الرحالة في بلده وقريته، وتغاير ما عرفوه وعاشوه في بلادهم، وعندما تكون الرحلة إلى خارج عُمان، وفي ذلك يقول الرحالة سعيد بن خلف الخروصي في رحلة- بمبي: (الخروصي، 1981م، 198).

أقلنا السيار ثم ســارا	ليمنة وتارة يســارا
في تلكم الشوارع الجميلة	حتى أتينا بلدا جليلــة
يحلها الطبيب رافع على	أعلى محل فاق حسناً وحلا
قابلنا بالبشر والترحيب	والأنس والاجلال والتقريب
نشكره للخلق الجميل	وحسن ما لقينا منه والمقيل
ثم خرجنا شاكرين منه	أخلاقه وراحلين عــنه.

ونلاحظ مما سبق، أن الصورة الاجتماعية التي قدمها الرَّحالة في قصائدهم ضمن سياقات وأشكال متعددة، تحدثوا فيها عن العادات والتقاليد، والملابس، والأطعمة، والأشربة، وعن تصرفات القوم في مناسباتهم الدينية والاجتماعية المختلفة، لقد عكست الرحلات، صوراً لأشكال الحضارة والتقدم في مختلف البلدان التي توجه إليها الرّحّالة، ولذا كانت الرحلة سلسلة من سلاسل العقد الاجتماعي، الذي يعمل على الربط والتلاقح بين مختلف الثقافات، كما تعمل على الامتزاج بين الشعوب من خلال التحاور الفكري، لتكون بذلك خير وسيلة للتقارب والتواصل بين الأمم.

- **القيمة الفنية**: لقد برزت ظواهر وقيم فنية، كشف أدب الرحلات من خلالها عن الرحالة العماني، المتعطش لمعرفة العالم الذي يحيط به، فهو شغوف برصد التفاصيل المكونة لحياة الأمم والشعوب، على كافة مراحلهم ومستوياتهم ومظاهرهم الاجتماعية، والدينية، والسياسية، والثقافية، وكل ما يتعلق بهم من عادات وتقاليد،

خاصة الغرائبي والعجائبي منها، وما عدّه الرّحالة سلوك مثير للتأمل والتفكر، ونقله كتجربة جديدة ومثيرة بأسلوب أدبي، تثير شغف القارئ المتلقي لهذه الحكايات.

وقد تناول القزويني مفهوم العجيب، فقال:" بأنه حيرة تعرض الإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه" (القزويني، 1980م، 5).

وقد تعجب الرَّحالة مرشد الخصيبي من روعة المناظر في رحلة الجبل الأخضر، يقول (الخصيبي، 2003م، 159):

وبعد فالواجب قد ألزمنـا	بأن نجيب من غـدا يطلبــنا
زيارة للجبل الأخضــر في	ذا الوقت دون غيره فلتعــرف
حيث ثمار الجوز والرمـان	يانعة قطوفها للجانـــي
قد اكتست أشجـارها وازّينت	بتلكمو الثمار قد تحشّمــت
مثل العروس لبست أحلى الحللْ	فأصبحت في الحسن مضرب المثل
يا روعة المنظر ما أحســنَهُ	سبحان من صوّره سبحانــه.

وله أبيات كذلك، تعجب فيها من انتظام حركة الطائرات في مطار فرنسا، يقول (الخصيبي، 2003م، 172):

أما المطار عنه فالتعبيــر	يعجز فهو واسع كبـيرُ
ترى به خلقاً كثيراً ذاكــا	آت وهذا رائح كذاكــا
كما ترا الأفواج في صفـوف	ينتظرون الدور في الوقوف
مطارهم قد قسموا أقساما	ورغم ذاك فترى زحاماً
والطائرات فهي كل وقت	ما بين ذاهب لها أو آتي
بالجملة الإتيان والمسير	وإنه لمنظر مثيــرُ
كفى الذي ينظمنَّ الحركة	عقلاً ترى به من دربكة.

ومن خلال الأبيات السابقة، يتضح جليا المشهد العجيب من انتظام الحركة الجوية في المطار، وحركة المسافرين على كثرة الوجهات، وهي نقطة مهمة تحسب لكل دولة في التنظيم والترتيب، ولا سيما أن تجربة الطيران والمطارات الكبيرة، فقد كانت تعتبر شيء جديد على كثير من الناس في تلك الفترة.

وللرحالة الخصيبي أبيات تعجب وإشادة من انتظام صفوف الصلاة في الحرم الشريف بمكة المكرمة رغم العدد الكبير من المصلين، يقول (الخصيبي، 2003م، 177):

من ثم أدينا صلاة الجمعة	في المسجد الحرام ياما أروعه
قد خشع الناس لرب العزّةِ	فالكل من خشيته في هيبــة
كأنما على الرؤوس الطير	فهيبة الموقف فيهم تعــرو.

وهو منظر بديع جميل، كجمال ونظام الدين الإسلامي، الذي يعلم أتباعه الانضباط والانتظام في سائر شؤون حياتهم، وكم كانت الصلاة سبيلا للعباد، بأن تنتظم أوقاتهم ويعمروها بكل ما يرضي المولى عزّ وجل.

ومن خلال الأمثلة السابقة يمكننا القول: بأنه تكاد لا تخلو كتب الرحلات العمانية في الغالب من استعمال مفردات التعجب، التي تلتقي وتتصادم معه، بحيث يمكن القول: بأن الرحلة في بعض جوانبها مشاهدات لغرائب وعجائب الاخر، ومع تعلق الإنسان والعمران والتاريخ على حد سواء؛ لاعتبارات عند الرحالة يراها غير مألوفة، يضعها تلقائياً في دائرة المقابلة مع غير المألوف، لذلك قيل:" الرحلة في إطارها العام هي خروج من دائرة ما هو مألوف إلى انفتاح على اللامألوف" (حليفي، 2003م، 97).

أما سعيد بن مسلم المجيزي العماني، فقد ذكر تعجب من مشاهد في رحلة (السياحة الظفارية) عام 1324هـ، يقول (المجيزي، 2004م، 42):

وفيها من الإعجاب ما قد رأيته	أناسُ بأعلى السُمر كالطير قد قروا
نيام كما نام العروس وتارةً	قيام كما قام البزاة أو النسرُ
فأعجب بحمران الأنيق ومائه	وأعجِب بأقوام شرافاتهم سمرُ.

في الأبيات السابقة، يتعجب الرحالة سعيد المجيزي من مشهد عجيب، راه في ظفار أثناء رحلته بمعية السلطان، وذكر فيها اتخاذ مجموعة من سكان جبال ظفار الشجر سكن لهم، في صورة تشبه سكنى الجوارح كالصقور والنسور، وهذا المشهد على غير المألوف عند الناس: إذ أن المألوف سكنى الناس في البيوت، أو الخيم عند البدو الرحل، وفي مثل تضاريس ظفار يمكن لهم اتخاذ الكهوف في الجبال سكنى تحميهم من توهج الشمس نهارا، وتظلهم وتأويهم من الأمطار في فصل الصيف وفصل الخريف، والذي تتحول فيه تلك البقعة إلى جنة خضراء بسبب الأمطار المستمرة، متأثرة بمناخ شبه القارة الهندية، وهذه الصور العجائبية التي يوردها الرحالة في نصوصهم تجعل المتلقي متشوقا لمعرفة جميع التفاصيل، محاولا في الوقت نفسه الجمع بين العجائبي في القصة والواقع الذي يعيش فيه.

المبحث الثاني- خصائص الرحلة العمانية.

من خلال هذا المبحث، نستطيع دراسة أدب الرحلة، بوصفها فناً أدبياً له سماته وخصائصه الذاتية، التي تميزه عن غيره من الفنون الأدبية، بحيث يساعد ذلك في استجلاء هذا النوع من الأدب، وكشف خصائص البناء الفنيّ له، كيف بدأت الرّحلة، وكيف انتهت؟ وعناصر تلك البداية والنهاية التي يحكمها الزمان والمكان، واللغة والشخوص في مستوياتهم المختلفة، الاجتماعية والثقافية والفكرية، وانطباعات تلك الشخصيات التي كثيراً ما تكون شيقة، وتقرب الرحلات من الحكايات؛ لذلك فإن الرحلات بحاجة إلى دراسات جديدة، وجهد كبير من الدارسين والباحثين، لتحديد الأبعاد والخصائص الأدبية، وتحليل جماليات الصور الشعرية؛ من حيث هي بناء فني وإبداع أدبي، يتضمن الحياة بكل ما فيها من مغامرات، وأشعار، وأمثال، ورسائل ؛ فقصائد الرحلات تحمل في طياتها مصدراً لمعرفة أحوال المجتمعات، وما يتعلق بها من علوم، كعلم السكان والاقتصاد، والتجارة، وغيرها، ثم أخذ تدوين الرّحلات يتطور شيئا فشيئا، حيث أصبح لكتابة الرحلة تقاليد فنية، يلتزم بها مدونو الرّحلات مما تطلب توجيه النظر إلى دراستها، وفي هذه الدراسة حاولنا أن نخطو خطوة في توضيح ملامح تلك السِّمات والأبعاد والخصائص.

أ- **الأسلوب واللغة والمنهج**: تأثر الرحالة العمانيون بأسلوب الكتابة الأدبيّة المشرقية، وعند استعراض نصوص الرّحلات العمانية التي بين أيدينا، يمكننا الوقوف على خصائص نصوصهم الأدبية، وما تملكه من جماليات، وانفعالات توثر على المتلقي، وفي الوقت نفسه تضيف قيما موضعية ترتقي بفكر الإنسان، من خلال حصوله على معلومات ومعارف حقيقية، يبث فيها الرحالة ما يوافق المعتقدات الإسلامية والأخلاق.

ونلاحظ أن ألفاظ معظم أشعار الرّحالة جاءت سهلة وواضحة، بعيدا عن التعقيد والغرابة، فقد كان الرحالة سعيد المجيزي يفتتح قصائده بأبيات مجودة بالسجع والجناس والطباق دون إسراف أو مبالغة لغة تخرجه إلى حدّ التكلف، وللرحالة المجيزي قصيدة لرحلة صيد، بمعية السلطان فيصل بن تركي، يقول: (المجيزي، 2004م، 15)

خيام ما يطاولها السحاب	وشهبُ في البسيطة أم قباب
وأطناب بأوتاد أميطت	أم الجوزا بأيديها شهابُ

وأعمدة تجللها سماء　　من الياقوت يكسوها ضباب
وتلك مصانع نسأت بأيد　　أم الأفلاك ليس لها حجاب.

نلاحظ من خلال مقدمة القصيدة عند الرحالة المجيزي، كانت ذات لغة بسيطة وفصيحة في آن معًا؛ فقد خلت من الكلمات الغريبة التي كانت حاضرة عند الشعراء الجاهليون، ونلحظ أيضا تنوع الأساليب اللغوية والبلاغية، فالسجع في: (سحاب، شهاب، ضباب، حجاب)، يجعل القارئ يسرُ ويتأثر.

كذلك جاء أسلوب الرحالة سعيد بن عبد الله بن غابش النوفلي، في مقدمة الرحلة الأدبية إلى الأقطار الإفريقي، حيث يقول: (النوفلي، 2000 م، 151)

حمداً لمن منَّ على العباد　　بالضرب في مناكب البلاد
ليبتغوا من فضله ومنّه　　ويرتجوا من جوده وعونه
ثم صلاة الله تخشى أحمداً　　مع سلامه تعالى أبــدا.

ولم يجاوز ذلك الرحالة سعيد بن خلف الخروصي، في مقدمة الرحلة الفاخرة إلى عبري الظاهرة، حيث كانت الألفاظ سهلة واضحة، بعيدة عن التكلف والتعقيد، تتناغم مع الجرس الموسيقى وتبقي تأثير مباشر على القارئ: (الخروصي، 1981م، 206)

خليلي بالرستاق سيرا وبكرا　　ونصا لأن الدرب صار ميسرا
وأما بنا سيرا ديارا لغافر　　وآل شكيل والمقابيل في الذرا
وإن جزتما أرض الكرام كليهم　　ألا بلغا عنى السلام الموفرا
ولا تغفلا عن جمرة العرب إنهم　　بنو عمر ممن لمجد وأفخرا.

ومن خلال النصوص الشعرية السابقة، نلاحظ أن الرحالة يتسمون بجمال الأسلوب ونقاء التعبير، وسلاسة البيان، وفي المقابل تظهر علامات لطباع مختلفة، فليس كل ما يصادف الرحالة يشعره بالسعادة والفرح والسرور، وإنما قد يتغير حاله إلى شعور سيء بحسب الموقف، ومثال مشاعر الانفعال والتضجر هذه، نجدها عند الرحالة مرشد الخصيبي، حيث امتزجت في قصيدة رحلته إلى فرنسا بعض الضجر والضيق، حيث لازم البيت من قساوة الطقس، حيث صادف موعد وصوله إلى باريس، موجة برد قارس لم يستطيع بسببها الخروج من الفندق، يقول: (الخصيبي، 2003م، 173)

وفي فرنسا الجو قد ضايقني　　لذا على التجوال ما شجعني
فالبرد قارس كذلك الـبَرَدُ　　ينزل كالرذاذ ثم يجمــدُ
لذا بقيت قاعداً في الـنزل　　ومنه طول الوقت لما أنزل
وليس عندي صاحبٌ يرشدني　　أو لمكاني نحوه يأخذنــي
ولهجة البلاد صعبة فمــا　　أجيدها كمن بها تكلمّــا.

لقد حرصا الرّحالة العمانيون على أن يكون كلامه منسقا، يعتمد على السجع غير المتكلّف، واقتباس كثير من المعاني من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويلتزم قواعد اللغة العربية والنحو والبلاغة، مما يساعد ذلك على تتبع إنتاج الأدباء والعلماء والرحالة على حد سواء، وفي ذلك يقول الرحالة محمد بن عبد الله السالمي: (الخصيبي، 2006م، ج2، 128)

وفيه تفريج من الهمـوم　　وفيه أبحاث عن العلــوم
وفيه آداب سراة القــوم　　من عرب وعجــم وروم.

وعلى الجملة فإن قصائد الرحلات كانت سهلة الألفاظ مألوفة، ركزت على الافعال، متفقة مع طبيعة الرحلة، ومساحة الحركة المتتالية للصّور ذات الانتقال السريع، لذا يمتاز الأسلوب بالتلقائية والاسترسال ووضوح المعاني، فقد كان للأفعال دور كبير في بيان دلالات الرحلة، حيث أظهرت رحلة أبي الصوفي دلالة فعل السفر، فالسفر إرادي يتم بالجهد الشخصي، يقول: (المجيزي، 2004م، 42)

فلما فشا ضوء الصباح وقد بدت نجوم السماء تخبو وألوانها غُبرُ
تبدي لنا سرب الظباء كأنـه سراب بظهر البيد أوقد الحـَرُ.

وقد نوّع الرحالة في استخدامهم للضمائر المتصلة بتلك الأفعال، حيث وردت أفعال اسندها الرحالة إلى ضمير الجمع، وأخرى إلى ضمير المتكلم المفرد، ومنها، (غدونا، وأظلالُنا، تكاملنا، سمرنا، أرست سفيننا....)، الأمر الذي اكسب الأفعال حيوية وحركة تنسجم مع في الرّحلة.

وحفلت كذلك قصائد الرحلات، بالجمل المعترضة وبخاصة الدعائية منها، ولعل عناية الرّحالة بها؛ يعود لاعتبارها من "الأصول التي يعتمدها التعبير الأدبي في العصور كافة، والمعبرة عن التعظيم لله تعالى والدعاء للسامعين بالتوفيق والرحمة (الكلاعي، 1966م، 72 – 80).

ويبدو الأثر الديني واضحا في اسلوب الرّحالة، فقد كان القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة أساس ثقافتهم، ومصدر بلاغاتهم، فكثر الأخذ منها، ولا غرابة في ذلك؛ فالعامل الديني من الدوافع المهمة للرّحلات، وكان الاقتباس في اللفظ والمعنى والنصّ وفي المعنى، فغدت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، أسلوباً من الأساليب والأدوات الفنية للرحلات، الذي حقق بدوره الانسجام بين الألفاظ والمعاني.

ويبدو أن التأثر بالآيات القرآنية عند الرحالة القاضي سعيد بن خلف الخروصي، واضحا جليا في مختلف قصائد رحلاته، ومثال ذلك قوله في الرحلة الهندية: (الخروصي، 1981م، 199)

كرمنا على الورى تفضيلا وأكمل الخير لنا تكمـيلا
حملنا في بحره تبجيـلا وسخر الجوا لأهل الفكري.

يشير البيت الأول إلى الآية: "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا"، (الإسراء:7).

وضمّن بعض الرّحالة في قصائدهم كذلك الأحاديث النبوية الشريفة، لاسيما تلك الأحاديث التي تذكر الأماكن المقدسة، كالمسجد الحرم في مكة المكرمة، والمسجد النبوي في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك يقول عبد الله بن علي الخليلي في رحلته إلى العمرة: (الخليلي، 1990م، 176).

هو الجدُ حتى تستبين جدود هو الجد حتى لا تعوق حدود
هو الجد حيثُ القصد لله وحده وحيث سبيل المخلصين سديد
على عزمات لا تقيم على الونى ولو أن كل الكائنات صدود.

وهو يشير أيضا إلى الحديث الوارد في صحيح البخاري: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى" (البخاري، 1422هـ، 60:2).

وللشاعر ناصر بن سالم بن ناصر المعولي، رحلات متوالية إلى الحج، يقول في أحدى رحلاته: (المعولي، د ت، 242)

شوقي إليك دعاني لم أطق أبدا صبرا فخلفت فيك الأهل والولدا
لبيك لبيك يا ذا الفضل يا بارئ الخلق والدنيا من العدم
والكرم لبيك إنا مسرعون إلى أداء فرضك حج البيت ذي العظم.

والشاعر يشير إلى نداء الخليل إبراهيم عليه السلام في الآية القرآنية:" وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كُلِ فَجَ عميقٍ" (الحج، 27).

وبهذا تكون معظم الرّحلات قد أفرزت بشكل واضح الخطاب المركزيّ لها، وهو الخطاب الدينيّ، فمعظم الرّحالة أصحاب ثقافة دينية، انعكست في أسلوبهم، حيث قصدوا جمع كل ما يعزز هذا الخطاب، ومع ذلك لم يكن الخطاب الديني مستقلا عن الخطاب التاريخي، أو الخطاب الاجتماعي؛ فهي مجتمعة تشكل النصوص الشعرية التي يدون فيها الرّحالة أخبار رحلته.

ب- **الوصف**: احتل الوصف مكانة كبيرة في الرحلات العمانية، والتي كانت تمثل خطّا طويلا منه، فللوصف أبعاد جماليّة، حيث أنه يقدم لمحة عامّة عن الشخصيات والأحداث التي تصاحب الرّحالة أثناء الرحلة، حيث يحاول الرّحالة رصد كل ما يشاهده أو يسمه اثناء الرحلة، ويحاول تسجيل كل ما تقع عليه عينه من مشاهدات مختلفة (طرق، كائنات حية، أشجار)، وما يتعاطاه البشر من مختلف الأنشطة والمناسبات والعادات والتقاليد، ثم قاموا بنقل تلك الأخبار والمشاهدات، إلى كل من حالت الظروف بينه وبين الرحيل والسفر لأي سبب.

وقد استطاعت هذه الأوصاف أن تعبر عن انطباعات الرّحالة، وترسم صورة لشخصياتهم، فهم ينقلون المشاهدات والأخبار، ويصفونها بحيث تصل إلى عالم المحسوسات المدركة بالمشاهدة والسّماع، حيث يضيف الرّحالة على هذه الرحلات مشاعرهم واحاسيسهم، ويجعلونها تنبض بالحياة والحركة، فقدمت بذلك الرحلات المتعة والتشويق للمتلقي، وكشفت عن مكنون الجمال الطبيعي لمختلف الأحداث والكائنات التي شاهدوها، ومختلف الأماكن التي زاروها.

وتبدوا قدرة محمد بن شيخان السالمي واسعة على التصوير، حيث يكثر من التشبيهات والاستعارات، ويعتمد على العناصر المادية المحسوسة المستمدة من العالم المحيط به، وهي صور تتشابه عند معظم الرّحالة لأنها مستمدة من الإنسان والكائنات الحية والبيئة المحيطة به، فيقول واصفاً رحلة السلطان فيصل بن تركي، عندما سافر إلى محافظة ظفار بجنوب عمان، على اليخت السلطاني (نور البحر)، وقد اعترضه طوفان أثناء رحلته، لكن الله كتب لهم النجاة والسلامة: (السالمي، 1979م، ص75)

جاءت كموج البحر تخطر بالكفل وقوامه بالطعن في الأحشاء كفل
بيضاء ما لمحت أسرة وجهها بدر الدجى متعرضا إلا أفل.

أما للرحالة سعيد بن خلف الخروصي؛ فقد وصف مدينة كراشي الباكستانية، حيث سافر إليها لحضور مؤتمر، يقول (الخروصي، 1981م، ص163):

أسال أصحابي ونحن نسير في شوارعها: ما هذه البلد الفخـم؟
أهذي كراشي؟ أم هي الجنة التي أتى ذكرها في "الفجر" زينها النظم
أجابوا: بلى هذه كراشي وتلك قد أبيدت فماذا الوهم؟ ما أنت والوهم
بلاد كساها الله حلة بهجــة ومن طابع الحسن البديع لها قسم
شوارعها خضر وبيض قصورها وحمر روابيها وأسوارها تسمـو
لها من جمال الصيف جيش ملاحه فكم قد رمانا من لحاظ المرسهم.

في المثال السابق، نلاحظ أن الرحالة تميّز بوصف مدينة كراتشي، ويظهر ذلك جليا في تراكيب ألفاظه، فكان الرحالة متمكنًا بحجم قدرته على الوصف الصادق الدقيق، فنرى أنه وصف ما شاهده بفطرته وعفويته وواقعيته، وما دلّ ذلك إلا على رقيّ شعره، وزخامة صوره ودلالاتها، ولعل ذلك يؤكد أن الشاعر هو الوصاف الذي يعبر عن خلجات النفس، وأسارير الجباه، من خلال القدرة على تصوير كل مشهد يمر عليه.

أما الشّخوص في الرحلة، فتقول يمنى العبد: "إن الذّات... بانتمائها إلى مجتمع وتاريخ، ذات متباينة بل متناقضة، ومتصارعة ولو في صحّتها وعّيها والصّراع في رواية السيرة، هو بين الذات وذاتها، وداخل ال (نحن) من جهة ومع آخر يتواطأ مع هذه ال (نحن) وضدّها من جهة ثانية"، "فالذات في بعض الرّحلات صورة محورية، حيث صورت الرّحلة سيرة أصحابها، والواقع المعاش، والواقع المستمد من معايشة الآخرين، وهذا قرّب الرّحلات من الشكل الفنيّ أكثر منها تسجيلاً جغرافيا " (العبد، 1997م، ص20).

وقد جاءت الشخصيات في عموم الرحلات شخصيات لا متناهية، متعددة الأحوال، والمستويات الاجتماعية والفكرية والثقافية المختلفة، والصفات والطبقات: الملوك والسلاطين، والوزراء والقضاة والجيوش، والرواة والعلماء والأدباء والشعراء، والتجار والجواري وتعدى ذلك إلى الحيوانات، والنباتات، وبهذا التنوّع، تتنوع الاحداث، ولعل شخصية الرّحالة هي الشخصية الأهم التي اعتمدتها الرّحلات في المقام الأول، فهو الوصّاف واللغوي، المهتم باللغات واللهجات، الفنية والأديبة، وهذه الشخصيات كفلت الترابط بين أجزاء العمل الواحد بحيث دارت الأحداث جميعها في فلكه، ولم تشذ عنه، فحضوره دائم وفاعل، حيث يكفل الوحدة الموضوعية للعمل ويضفي عليه السّمة الفنّية، (العبد، 1997م، ص20).

وبالملاحظة نجد أن الرّحلات قد تشكّلت وجمعت عن طريق التجربة الشخصية للرّحالة، وعن طريق محادثاتهم مع شخصيات واقعيّة، تعرفوا عليها من خلال رحلاتهم فمعظم شخوص رحلة محمد السالمي كانت واقعية عاشت في أزمنة وأمكنة لها أبعادها التاريخية والجغرافية، وأصحاب هذه الشخصيات منهم من ينتمي الى السلطة السياسية، كقوله: (الخصيبي، 2006م، 30:2).

طابت بلقيا الملك الجليـل تاج المعالي هامة الاكليل
تيمور رب الشرف الطويل انعم به من ملك نبيـل.

وهنا يصف الرّحالة الحفاوة التي لاقاها عند زيارة " السلطان تيمور بن فيصل بن تركي الذي تولى الحكم في عمان حتى عام 1932م، عندما تنازل عن الحكم لابنه السلطان سعيد بن تيمور" (النبهاني، 2015م، 16).

وتجدر الإشارة في هذا المقام أن الرّحالة العمانيون يتحدثون عن شخصيات حقيقية يلتقون بهم في أثناء الرحلة، ويبتعدون عن ذكر الشخصيات الخرافية وكائنات أسطورية سرد حكايتها بعض الرّحالة العرب كقصة طائر الرخ، والكائنات التي تخرج من حباب النحاس في حكاية مدينة النحاس (الغرناطي، 2003م، 93)، فقد ذكر الغرناطي أنّ أحد الرجال "فتح منها حُباً فخرج منه فارس من نار، على فرس من نار، في يده رمح من نار، فطار في الهواء وهو ينادي يا نبي الله لا أعود – النبي سليمان بن داؤود..." (الغرناطي، 2003م، ص47).

"وقد يكون الخيال لعب دوراً كبيراً في تصوير هذه المخلوقات إلا أنه بالتأكيد لم يتم اختلاق تلك التصورات اختلاقاً، حيث يبدو انّ بعض الرّحالة قد صدق كلّ ما سمع من حكايات وأخبار مهما بلغت غرابتها، وقلّ ما كان يحاول محاكمتها بالمنطق، وقد يعزى ذلك إلى كثرة ما شاهد الرّحالة وسمعوا من حكايات أو لكثرة الأحداث التي مرّوا بها، وطول المسافات وصعوبة المراحل التي أثرت في نفسيتهم" (الشوابكة، 2006م، 215).

ونخلص مما سبق أن الرّحلات قد مزجت بين الوصف الذّاتي والوصف الخارجيّ لشخصياتها، الثابتة التي لم تؤثر فيها الأحداث والشخصيات المتطورة التي تتفاعل معهما، ولذلك نجد خطاب تلك الرّحلات متحوراً حول بطل الرّحلة والرّحالة والتجربة الذّاتية، والمعرفة الموضوعية، وهي كذلك تؤكد أنها عاشت عصرها وتأثرت بالحضارة آن ذاك، وأن حضور الرّحالة حضور دائم حقق الامتاع للمتلقي، وشده لمتابعة الأحداث، فكان الرّحالة بذلك كتّاباً ورواة ومؤرخين سجّلوا الكثير من الأحداث والوقائع.

ج- **البناء الفنيّ والقصصيّ**: إن القيمة الفنية لقصائد الرّحلات تنضح فيما تعرض فيه من مواد وأساليب تسمو بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني، وبالرغم ما يتّسم به أدب الرّحلات من تنوع في القصائد الشعرية والسرد القصصي في النثر، إلى الحوار والوصف فإن أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة الشعرية لهذه الرحلات التي ينقل فيها الرّحالة من خلالها مشاهداتهم ومشاعرهم وتجاربهم، ينقلها إلى المتلقي باستعمال كلام موزون مقفّى، يحتوي على رموز دلالات لها جمالية وإبداع خيالي رقيق، " وهو بذلك يقدم متعة ذهنية كبرى" (حسين، 1983م، 10)، وهناك محاور أساسية للبناء الفني لهذه القصائد أهمها:

- **المقدمة**: وتبدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ومن ذلك قول الرحالة عبد الله الخروصي في مقدمة قصيدة- رحلة الجبل الأخضر-: (الخروصي، 1996م، 34).

الحمد لله الكريم المنعم معلم الإنسان ما لم يعلم
من من بالاحسان والتقدم والعقل والإيمان والتكرم.

ونلاحظ أيضا، مقدمة قصيدة- رحلة إلى ربوع الجبل الأخضر- للرحالة مرشد الخصيبي، حيث حمد الله تعالى، وذكر الثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولعل ذلك يعود لفكرة البركة في القصيدة والحديث بشكل عام، حيث جرت العادة أن الذي يريد الحديث أمام جمع من الناس، يمهد الكلام بمقدمة، فيها حمد وثناء وصلاة على النبي المختار، يقول: (الخصيبي، 2003م، 159).

الحمد لله الذي قد سهّلا لخلقه في ذا الزمان السبلا
وأصبحت وسائل الأسفار ميسورة للجوّ والبحار.

ومن الامثلة كذلك، قصيدة "رحلة الفصل" بين خصومات وقعة بمدينة الرستاق، من اعمال شمال عمان، للقاضي محمد بن عيسى الحارثي (الحارثي، د ت، 934:98):

حمدا وشكرا وابتهالاً وثنا لربنا أسدى علينا مننا
في عام خمسين وألف سنة مع أربع مع ثلاث مائة
لهجرة المختار سيد البشر صلى عليه الله ما نجم زهر.

ولم تخرج عن نظائرها من القصائد السابقة، حيث بدء بالحمد والثناء، والصلاة على النبي المختار، وانتقل بعضدها لموضوع القصيدة.

أما الرحالة سعيد بن خلف الخروصي فقصائده تخلف من مثل هذه المقدمات، فهي موجزة سريعة حدّد فيها أسباب الرّحلة ودوافعها وزمن الخروج ومكانه، يقول في قصيدة – رحلة الناظم إلى بمبي- في عام 1392 هـ: (الخروصي، 1981م، 197)

باسم الذي أجرى السفين منا ورحمة للعالمين منـــا
ماخرة تشق ماء البحـر كأنما البحر وشيكاً يجـري
قد غادرت مسقط يوم العاشر من مارس والماء شبه الثائر.

ويقول عبد الله بن عمر بن زياد اليهلوي، وهو من فقهاء القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، عندما سافر إلى الحج ونظم الرحلة في قصيدة تتألف من مائة بيت وأكثر، يقول في مطلعها (البطاشي، 2004م، 330:2):

أرى طيف من أهواه زار وسلما وأزعج ناراً في الفؤاد وأضرما
وهيج تبريحاً وشوقاً ولوعة وجدد تذكاراً به كان مكتماً
تهل انسكاباً عبرة بعد عبرة بفقد الذي أهواه والقلب وصما.

في الأبيات السابقة، جاءت المقدمة بصبغة القصائد الجاهلية، حيث يعدّ الطلل من أهم معالمها البارزة، وهناك علاقة وثيقة بين هذا النوع من المقدمات، وإنسانية الشاعر، وميوله وعواطفه بماضيه وحاضره (القيسي، 1984م، 257).

ومما سبق نلاحظ أن المقدمة – على اختلافها – تأتي منسجمة مع المضامين التي احتوتها قصائد الرحلات، حيث يشعر البدء بالفكرة، ويمهّد للموضوع الذي يحكي تفاصيل وسبب الرحلة.

- **العرض**: وهو يلي التمهيد، حيث توظف قصائد الرّحلات كلّ الأساليب والتّعابير لإبراز الموضوع أو الهدف من أجله كانت الرّحلات، فالموضوعات وكلّ ما صادفه الرّحّالة من المشاهدات، تصوّر الصّلة القوّية بين عناصر البناء الفنيّ، فتأتي أبيات القصيدة أكثر قوة وترابطاً، يقول الرحالة عبد الله الخروصي في قصيدة-رحلة الجبل الأخضر- بعد المقدمة: (الخروصي، 1996م، 34)

وبعد أن دنى المسيـــر وأكد العزم لنا التيســير
صار خروجنا باثنى عشــر من رجب ليلة المزدهــر
والقصد رضوى جبل قد شمخا والجود في أصحابه قد رسخا
أول ما جئنا إلى الهجــار دار الإمام الوارث القـهّار.

ومن الأمثلة كذلك، رحلة السلطان حمود بن محمد البوسعيدي (1853-1920)، المسماة بـ "اللوامع البرقية"، وهي رحلة سياحية للممالك الأفريقية، اصطحب فيها السلطان الشاعر ناصر بن سالم بن عديم الرواحي، الذي نظم تفاصيل هذه الرحلة، فيقول مختصرا لها (الرواحي، 1983م، 42):

قد نهض الجد على ساقه يهزج في الأكوان كالعندليب
فما لأفريقية لا تثني من طرب مثل انثناء القضيب
قد ساح في أقطارها كلها كالشمس في المطلع بعد المغيب.

وفي المثال السابق، قدم الشاعر عرضا مختصرا، لسبب زيارة السلطان للأقطار الأفريقية التي كانت تحت حكم السلطان، وقد جمع السلطان بين السياحة، والاطلاع على امتداد المملكة واحوال الرعية، وهي عادة للسلاطين الذين تلاحقوا على الملك.

- **الخاتمة:** ويختم معظم الرّحالة رحلاتهم بالحمد والصّلاة على محمد وآلة وصحبه، وقد يحدد بعضهم الزمن الذي استغرقته رحلته من لحظة الخروج إلى العودة، أو زمن وتاريخ العودة، ومن ذلك قصيدة الرحالة سعيد بن خلف الخروصي- من وحي باكستان – حيث ختمها بقوله: (الخروصي، 1981م، 163)

وآخر جلسات الوفود قد انتهت بثاني عشر ديسمبر كمل الرسم
وذي رحلة كالمسك عرف ختامها صلاة على من قوله الفعل الحكم
محمد الختام للرسل كلهــم وأصحابه الأخيار ما حسن الختم.

ويختم الشاعر سعيد المجيزي، قصيدة "بشائر القدوم في تاريخ وصول جلالة مولانا السلطان أبي سعيد تيمور بن فيصل"، فيقول: (المجيزي، 2004م، 185)

قد تجلى نور شعبان منه يوم عشر وتسعة من دجاها
قام في الملك بالسعود فأرخ هما تحسد النجوم علاها
إن تيمور عدله اليوم أضحى يطس الأرض وهدها ورباها.

وقد حدد الشاعر اليوم الذي صادف فيه رجوع السلطان من الرحلة، وهو يوم 19 من شهر شعبان سنة 1347هـ، وهو الأمر الذي يتشابه مع ختام أغلب قصائد الرحلات العمانية.

وختم كذلك الرحالة سعيد بن خلف الخروصي قصيدة – الرحلة الهندية – بقوله: (الخروصي، 1981م، 202)

كان مقامنا بــمبي إلى ثالث شعبان وشهر قد خلا
منذ خروجنا من عمان مكملاَ فالحمــد لله دوام الدهر.

ويمكن ملاحظة أن البناء في جميع هذه الرّحلات يظهر بصورة نمطية، تتبع خط سير الرّحلة من انطلاقها إلى لحظة العودة، بحيث يكسب النص الشعري مجالاً واسعاً لتوظيف الأدوات الأدبية.

الخاتمة.

- أدب الرحلات شأنه شأن غيره من فنون الأدب، شكل أدبي يمتاز عن غيره من الأشكال والفنون الأدبية الأخرى من حيث تمتّعه بمجموعة من الصفات والخصائص.
- كثيراً مما دونه الادباء في عمان من رحلاتهم لم تصل الينا، وربما ضاع كثير منها أو هاجر مع هجرة المخطوطات العمانية إلى الأقطار الأوروبية وبعض بلدان العالم.
- إن السياسة بمشكلاتها قد أثرت على رؤية الرحالة للآخر، وفرض عليه توجيه نقده له ومساءلته فان ذلك لم يمنع الرحالة من أن يواجه ذاته ويتوقف أمام تقصيرها واخطائها في صورة صريحة، تهدف إلى الإصلاح ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.
- يعد المظهر الاجتماعي القائم بين أفراد المجتمع الواحد من أبرز المشاهد التي وقفت عندها الرحلة العمانية، حيث رصدت الصورة المتعددة لأشكال العلاقات الاجتماعية المتمثلة في العادات والتقاليد والأعراف التي توضح صورة واضحة عن طبيعة وأسس البناء الفكري وسلوكيات المجتمع مدى التقدم الحضاري للدول.
- جاءت ألفاظ معظم أشعار الرّحالة سهلة وواضحة، بعيدا عن التعقيد والغرابة.
- ويبدو الأثر الديني واضحا في اسلوب الرّحالة، فقد كان القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة أساس ثقافتهم، ومصدر بلاغاتهم.
- جاءت الشخصيات في عموم الرحلات العمانية شخصيات لا متناهية، متعددة الأحوال، والمستويات الاجتماعية والفكرية والثقافية المختلفة، والصفات والطبقات.
- الرّحالة العمانيون يتحدثون عن شخصيات حقيقية يلتقون بهم في أثناء الرحلة، ويبتعدون عن ذكر الشخصيات الخرافية وكائنات أسطورية سرد حكايتها بعض الرّحالة العرب.
- الشكل العام للرحلة العمانية يتكون من مقدمة وعرض وخاتمة.

توصيات البحث ومقترحاته.

1. الاهتمام بهذا الأدب كونه يشكل رافدا مهما للمكتبة العربية، ويحتوي على كنوز معرفية أدبية وجغرافية.
2. تحقيق المخطوطات المرقومة في المكتبات العامة والخاصة، والتي تمثل رؤية واقعية ومشاهدات شخصية بمثابة شهادة على حقب زمنية، دونها الرحالة للجيل القادم، من أجل الاستفادة ونقل الخبرات.
3. ضمّ أدب الرحلات للمناهج التعليمية، سواء في المراحل الدراسة الأولى أو المتأخرة.

المصادر والمراجع.

- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله. (1422هـ). صحيح البخاري. ط2. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق. دمشق.
- البطاشي، سيف بن حمود بن حامد (2004). إتحاف الأعيان في بعض علماء عمان. (ط2). ج2. ص174. مسقط: مكتبة المستشار الخاص لجلالة السلطان للشؤون الدينية والتاريخية.
- البوسعيدي، حمد بن سيف بن محمد (1993). قلائد الجمان في بعض أسماء شعراء عمان. ص272. مسقط: وزارة التراث والثقافة.
- حسين، حسني محمود. (1403هـ/1983). أدب الرحلة عند العرب. ط2. دار الأندلس. بيروت.
- حليفي، شعيب. (2003). الرحلة في الأدب العربي. ط2. دار القرويين. الدار البيضاء.
- الخروصي، سعيد بن خلف. (1403هـ-1981). الدّر المنتخب في الفقه والأدب. المطبعة الشرقية ومكتبتها. مسقط.
- الخروصي، عبد الله بن الامام سالم بن راشد. (1996). المسألة والجواب في الفقه. مطابع الباطنة. سلطنة عمان. مسقط.
- الخليلي، عبد الله بن علي. (1990). ديوان وحي القريحة. ط2. وزارة التراث والثقافة. مسقط.
- الخصيبي، محمد بن راشد بن عزيز. (2006). شائق النعمان على سموط الجمان في أسماء شعراء عمان. ط4. مطابع النهضة. سلطنة عمان. مسقط.
- الخصيبي، مرشد بن محمد بن راشد. (2003). بيت من الشعر. مطابع النهضة. سلطنة عمان. مسقط.
- الرواحي، ناصر بن سالم بن عديم. (1983). اللوامع البرقية. د ت. وزارة التراث والثقافة. سلطنة عمان.
- السالمي، محمد بن شيخان. (1979). ديوان ابن شيخان السالمي. ط1. شركة المطابع النموذجية. الأردن.
- ضيف، شوقي. الرحلات. ط4. دار المعارف. القاهرة.
- الغرناطي، محمد. (2003). رحلة تحفة الألباب ونخبة الإعجاب. تحرير: قاسم وهب. دار السويدي للنشر والتوزيع. أبو ظبي. ودار الفارس. عمّان.
- الغزالي، محمد بن محمد الطوسي. (1426هـ- 2005). إحياء علوم الدين. ط1. دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، الإمام القاضي عماد الدين أبو يحيى. (1980). عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات. مكتبة البابي الحلبي وأولاده. القاهرة.
- الكلاعي، محمد بن عبد الغفور الإشبيلي (ق6). (1966). إحكام صفة الكلام. تحقيق: محمد رضوان الدّاية. دار الثقافة. بيروت.
- القيسي، نوري حمو. (1984). الطبيعة في الشعر الجاهلي. (ط2). عالم مكتبة النهضة.
- المجيزي، سعيد بن مسلم. (1425هـ-2004). ديوان أبي الصوفي. ط2. تحقيق: حسين نصار. مطابع النهضة. مسقط.
- النبهاني، سالم بن حمد. (2015). عمان في عهد السلطان تيمور بن فيصل (1920-1932). ط1. بيت الغشّام للطباعة والنشر والترجمة والاعلان. مسقط.
- النوفلي، سعيد بن عبد الله بن غابش. (1421 هـ- 2000). وحي القريحة. ط1. مطابع مؤسسة عمان للصحافة والأنباء والنشر والإعلان. مسقط.

- المعولي، ناصر بن سالم بن ناصر. (د ت). ديوان الدر المنظوم في شفاء الهموم. جامعة نزوى. عُمان.

الرسائل الجامعية:

- آل حمادي، عبد الله أحمد بن حامد. (1417هـ-1997). "أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية". رسالة ماجستير غير منشورة، في الأدب العربي، جامعة أم القرى، السعودية.
- الشوابكة، نوال عبد الرحمن محمد. (2006). "أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري"، رسالة دكتوراه غير منشورة في اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية، الأردن.
- الهروط، بلال سالم. (2008). " صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية"، رسالة دكتوراه غير منشورة، اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، الأردن.

الموسوعات العلمية:

- الموسوعة العربية العالمية. 1416هـ ط3. مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، العدد3. الرياض.

الصحف والمجلات:

- العبد، يمنى. (2000)، " السيرة الذاتية الروائية والوظيفة المزدوجة- دراسة في ثلاثية حنا مينا-". مجلة النقد الأدبي (فصول). (تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب). المجلد 15.
- محمد علي جناح. (2018م، سبتمبر 22). صحيفة البيان الإمارتية. تم الاسترجاع من الرابط https://www.albayan.ae/five-senses/east-and-west/2018-09-1.3363201.

المخطوطات:

- الحارثي، محمد بن عيسى بن صالح. الرحلة العدلية إلى الديار الغربية. مخطوط بوزارة التراث والثقافة (975). الرقم العام (1934/98ز).